

أهداف الدرس

- ## تمهید

الآيات

29

وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُغْبِذُونَ إِلَّا اللَّهَ فَاُولَئِكَ كَفُفَ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِمَّا رَحِمْتُمْهُ، وَيُلَاقِيَكُمْ مِمَّا آمَرْتُمُوهُمَا ﴿١٦﴾ [الكهف: 13 - 16]

الفهم

الشرح:

تَقُصُّ: نحكي القصة ونسردها، وأصل القص تتبع الأثر.

نَبَأَهُمْ: النبأ الخبر العظيم.

يُسَلِّطُ: بحجة وبرهان.

استخلاص مضامين الآيات.

1 - بم امتاز هؤلاء الفتنية عن قومهم؟

2 - كيف عبروا عن صحة عقيدتهم؟

3 - بم وصفوا قومهم؟ وكيف احتجوا على فساد نحلّتهم؟

التفسير

اشتملت آيات الدرس على ما يأتي:

أولاً: بيان قصة أصحاب الكهف وصفاتهم:

قال تعالى: ﴿فَقَرَأْنَاهُ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾، في تولي الله تعالى أمر بيان خبر أهل الكهف طمأنة لنبيه ﷺ، وتأكيد على صحة تفاصيل ما سيورده فيها. كما أن في ذلك تعقيباً لرفع الاختلاف الواقع في شأن الفتنية، وسبب خروجهم ومفارقتهم لقومهم، وفي مدة لبثهم في كهفهم، وفي عددهم وما انتهى إليه أمرهم.

فَعَقِبَ بِهَذِهِ الْآيَةِ لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَعْلَمُ أَمْرَهُمْ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ سُبْحَانَهُ شَيْءٌ، وَهُوَ يَقْصُهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﴿يَا نَحُورُ﴾ دُونَ زِيَادَةٍ أَوْ نَقْصَانٍ. وَفِي هَذَا إِيْمَاءٍ إِلَى أَنَّ نَبَأَهُمْ كَانَ مَعْرُوفًا لَدَى الْعَرَبِ عَلَى وَجْهِ لَيْسَ بِالصَّدَقِ.

ثم قال تعالى: ﴿إِن تَعْلَمْ فَوَتنَةً- اْمَنُوا بِرَبِّعْم وَزَنَةً تَعْلَمُ هَدًى﴾، أي: يسرناهم للعمل الصالح والانقطاع إلى الله عز وجل ومباعدة الناس، والزهد في الدنيا، وهذه زيادات على الإيمان.

وفي مجموع هذه الآيات جواب قريش عن سؤالهم الذي أمرتهم به بنو إسرائيل.

قال ابن كثير: «من ههنا شرع في بسط القصة وشرحها، فذكر تعالى أنهم فتية - وهم الشباب - وهم أقبلُ للحق، وأهدى للسبيل من الشيوخ الذين قد عتوا وعَسَوْا - كبروا - في دين الباطل، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله ولرسوله ﷺ شبابا. وأما المشايخ من قريش، فعلمتهم بقوا على دينهم، ولم يُسلم منهم إلا القليل. وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شبابا، فألهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم. فآمنوا بربهم، أي: اعترفوا له بالوحدانية، وشهدوا أنه لا إله إلا هو» [تفسير القرآن العظيم: 4 / 369].

وقال الطبري عند قوله سبحانه: ﴿وَزِدْنَاهُمْ نَجْمًا﴾: «وزدناهم إلى إيمانهم ببرهم إيماناً، وبصيرة بدينهم، حتى صبروا على هجران دار قومهم، والهرب من بين أظهرهم بدينهم إلى الله، وفراق ما كانوا فيه من خفض العيش ولينه، إلى خشونة المكث في كهف الجبل». [جامع البيان: 9 /

[207].

وقد استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة كالبخاري وغيره ممن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله، وأنه يزيد وينقص، ولهذا قال تعالى: ﴿وَزِدْنَا لَهُمُ هُدًى﴾ كما قال: ﴿وَالَّذِينَ آفَقْتُوا زَادَ لَهُمُ هُدًى وَعَافَا لَهُمُ تَقْوِيَهُمْ﴾ [محمد: 18]، وقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَزَدْنَا لَهُمُ إِيْمَانًا﴾ [التوبة: 125]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك.

ثانياً: منة الله على أهل الإيمان الصادق:

قال تعالى: ﴿وَرَبِّحْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ حين صدق هؤلاء الفتية في إيمانهم بربهم، استحقوا منه تعالى الربط على قلوبهم، تثبيتاً لها على الإيمان؛ إذ الفتن تعرض على القلوب فتقلب أحوالها

بين الهداية والضلال، وبين الاستقامة والزيغ، وبين اليقين والاطمئنان، والشك والارتياب، والربط على القلب هو تعبير عن شدة العزم وقوة الصبر الذي أفاضه الله عليهم. ولما كان الفزع وخور النفس يشبه الانحلال، حُسِّنَ في شدة النفس وقوة التصميم أن يُشَبَّه بالربط، ومنه يقال: فلان رابطُ الجأش إذا كان لا تَفَرِّق نفسه عند الفزع والحرب وغيرها، ومنه الربط على قلب أم موسى في قوله تعالى: ﴿قَوْلًا أَن رَبُّنَا عَلَيَّ قَلِيلًا﴾ [القصص: 9].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَامُوا﴾، يحتمل معنيين، أحدهما: أن يكون هذا وصفَ مقامهم بين يدي الملك الكافر، فإنه مقام يحتاج إلى الربط على القلب حيث صَلُّوا عليه وخالفوا دينه، ورفضوا في ذات الله هيبته. والمعنى الثاني: أن يعبر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله ومناذرة الناس، كما تقول: قام فلان إلى أمر كذا إذا اعتزم عليه بغاية الجد.

وقوله: ﴿قَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنُدْعُوهُ إِلهًا﴾ أي: ربنا رب السموات والأرض ورب كل مخلوق، فلن ندعو من دون رب السموات والأرض إلهًا، لا استقلالًا ولا اشتراكًا؛ إذ لا رب غيره ولا معبود سواه. وجاءوا بـ ﴿لَنَ﴾ لأن النفي بها أبلغ من النفي بغيرها، حتى قيل: إنه يفيد استغراق الزمان، فيكون المعنى: لا نعبد أبدًا من دونه إلهًا.

ثم عللوا لعقيدتهم ودعوتهم هذه بقولهم: ﴿لَقَدْ فَلْنَا إِلهًا شَهْدًا﴾ أي: إنا إذا دعونا غير الله، لقد ابتعدنا عن الحق، وتجاوزنا الحد في البعد عن الصواب. والشطط الجور، وتعدي الحد والغلو، ومنه «اشتط الرجل في السوم» إذا طلب في سلعته فوق قيمتها، ومنه شطوط النوى والبعد. وقوله: ﴿إِنَّمَا﴾ التتوين فيها تتوين عوض عن جملة الشرط، وهي منصوبة على الظرف.

وقوله تعالى: ﴿قَوْلًا فَوُضِّعْنَا لِنَفْسٍ﴾ الآية، مقالة تصلح أن تكون مما قالوا في مقامهم بين يدي الملك، وتصلح أن تكون من قول بعضهم لبعض عند قيامهم للأمر الذي عزموا عليه.

وقوله: ﴿قَوْلًا يَأْتُونَ﴾ تحضيض بمعنى التعجيز، لأنه تحضيض على ما لا يمكن، وإذا لم يمكنهم ذلك لم يجب أن يُلْتَفَتَ إلى دعواهم. و ﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ حجة واضحة ظاهرة.

وقوله: ﴿بِمَآ أَظْلَمَ مِنِّي فِتْرًا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحد أظلم من المفترى على البارئ

عز وجل بادعاء ما يستحيل في حقه ونسبة الشركاء إليه كذبا وبهتاناً بغير بينة أو سلطان.
والافتراء أشنع الكذب، وأصل اشتقاقه من «فرى يفرى» مثل «جرى يجري» إذا خرق الشيء ونفذ منه. والاستفهام هنا في ﴿بِمَتَىٰ أُولَٰئِكَ يَفْعَلُونَ؟﴾ استفهام إنكاري خرج إلى النفي، وقوله: ﴿كَذِبًا﴾ مفعول به منصوب، وجملة ﴿إِفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ﴾ لا محل لها من الأعراب، لأنها صلة الموصول، وهو «مَنْ» في قوله ﴿مِمَّنْ﴾.

ثالثاً: فرار الفتية بدينهم:

قال تعالى: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَما يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوا إِلَى الْكَهْفِ﴾، التاء الأولى في ﴿إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ هي تاء الافتعال الدالة على طلب العزلة. والتاء المتصلة بالفعل ضمير الفاعلين، والفعل مسند إلى جماعة الفتية. والمعنى: إذ تيقنتم أن مخالطتكم لقومكم خطر عليكم في أنفسكم ودينكم، لزمكم مفارقتهم وما يعبدون، والخروج من بين أظهرهم طلباً للسلامة والنجاة.
وقوله: ﴿وَما يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾، ذكر الطبري ما يقتضي أن ﴿مَا﴾ اسم موصول معطوف بالواو على ضمير الهاء في قوله: ﴿إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾، قال: «فـ ﴿مَا﴾ ... في موضع نصب عطفاً لها على الهاء، والميم التي في قوله: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾». [جامع البيان: 9 / 209].

يعني أن ﴿مَا﴾ اسمية وليست حرف نفي، فيكون المعنى: اعتزلتموهم واعتزلتم ما يعبدون من دون الله. أما الاستثناء في قوله ﴿وَما يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾، إن فرضنا الكفار الذين فر أهل الكهف منهم لا يعرفون الله ولا علم لهم به، وإنما يعتقدون الألوهية في أصنامهم فقط فهو استثناء منقطع ليس من الأول، وإن فرضناهم يعرفون الله ويعظمونه كما كانت تفعل العرب لكنهم يشركون أصنامهم معه في العبادة فالاستثناء متصل، لأن الاعتزال وقع في كل ما يعبد الكفار إلا في جهة الله تعالى، وفي مصحف ابن مسعود: «وَما يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ»، قال قتادة هذا تفسيرها، قال هارون -بن موسى- : وفي بعض مصاحفه: «وما يعبدون من دوننا»، فعلى ما قال قتادة تكون إلا بمنزلة غير، ﴿وَمَا﴾ من قوله وَما يَعْبُدُونَ في موضع نصب عطفاً على الضمير في قوله ﴿إِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾.

وَمُضْمِنُ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ بَعْضَهُمْ قَالَ لِبَعْضٍ: إِذْ فَارَقْنَا الْكُفَّارَ وَانْفَرَدْنَا بِاللَّهِ تَعَالَى، فَلَنَجْعَلَ الْكَهْفَ مَأْوًى وَنَتَكَلَّى عَلَى اللَّهِ، فَإِنَّهُ سَيَبْسُطُ لَنَا رَحْمَتَهُ، وَيَنْشُرُهَا عَلَيْنَا، وَيُهَيِّئُ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا مَرْفَقًا.

وَهَذَا كُلُّهُ دُعَاءٌ بِحَسَبِ الدُّنْيَا، وَعَلَى ثِقَةٍ مِنَ اللَّهِ كَانُوا فِي أَمْرِ آخِرَتِهِمْ.

وقوله: ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ﴾ أي: يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم، وهو مجزوم على جواب الأمر في ﴿قَاوُوا﴾.

وقوله: ﴿وَيُلَقِّعْ لَكُمْ مِمَّا مَرَّكُمْ مَرْوفاً﴾، أي: يقدر لكم ربكم ويوجد لكم من أمركم الذي أنتم فيه ما ترتفقون به. ﴿وَيُلَقِّعْ﴾ مجزوم عطفاً على ما قبله من الفعل، وقوله: ﴿مَرْوفاً﴾ مفعول لقوله: ﴿وَيُلَقِّعْ﴾ وهو مصدر ميمي على مَفْعَلٍ من رَفَقَ يَرْفُقُ.

وقرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر «مَرْفقا» بفتح الميم وكسر الفاء، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحزمة والكسائي «مِرْفقا» بكسر الميم وفتح الفاء، ويقالان جميعاً في الأمر وفي الجارحة - مرفق اليد -، حكاه الزجاج، وذكر الإمام مكي بن أبي طالب القيسي عن الفراء أنه قال: لا أعرف في الأمر وفي اليد وفي كل شيء إلا كسر الميم، وأنكر الكسائي أن يكون «المرفق» من الجارحة إلا بفتح الميم وكسر الفاء، وخالفه أبو حاتم، وقال: «المرفق» بفتح الميم الموضع كالمسجد وهما بعد لغتان.

قال الطبري: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان بمعنى واحد، قد قرأ بكل واحدة منهما قراء من أهل القرآن، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب». [جامع البيان: 9 / 210]

رابعاً: لطائف وفوائد:

- في الآيات أسلوب الالتفات، وذلك في الالتفات من الغيبة في الضمائر السابقة في قوله: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا﴾ وما بعده، إلى الخطاب في قوله: ﴿إِعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾ وقوله: ﴿قَاوُوا﴾ والضمائر في ﴿لَكُمْ﴾ و﴿رَبُّكُمْ﴾ و﴿أَمْرَكُمْ﴾. وهو من المحسنات المعنوية، وفيه تصوير لحالهم وكأنها حاضرة، وتوجيه الأمر إليهم بأن يأووا إلى الكهف، وكأن ذلك لم يحدث بعد، تنويعاً لأساليب العرض في القصة.

- في قوله: ﴿وَرَبِّكُنَا عَلٰى فُلُوبِهِمْ﴾ استعارة تصريحية، أصلية في المصدر تَبَعِيَّةٌ في الفعل، شبهت تقوية الإيمان واليقين في القلب بالرباط الذي تربط به الأشياء لتقويتها وتمتينها كحزمة العيدان، أو لحفظها من الضياع والانفلات كالطير والحيوان.

- دل قوله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ ضَاعِلٌ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ على أن القلب هو مستقر الإيمان والكفر، والهداية والزيغ، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمَرْ بِاللَّهِ يَتَّقْهُ قَلْبُهُ﴾ [التغابن: 11]، وقال: ﴿قَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5]، ونحوهما من الآيات. وقال ﷺ «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب». [صحيح البخاري: كتاب الإيمان - باب فضل من استبرأ لدينه، حديث 52]، ولذلك قالت عائشة - رضي الله عنها - : «دعوات كان رسول الله ﷺ يكثر أن يدعو بها: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، قالت: فقلت: يا رسول الله، إنك تكثر تدعو بهذا الدعاء، فقال: إن قلب الآدمي بين أصبعين من أصابع الله عز وجل، فإذا شاء أزاغه، وإذا شاء أقامه». [صحيح البخاري: كتاب الإيمان - باب فضل من استبرأ لدينه، حديث 52].

- في أن المؤمن إذا بلغ من الاستقامة والمحبة والإخلاص لله تعالى مبلغ الرضا، تلقاه ربه بالقبول وتولاه بالنتيبت والحفظ والتأييد، قال صلى الله عليه وسلم: «احفظ الله يحفظك» [رواه الترمذي].

التقويم

- 1 - ماذا يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ تَلَقُّهُمْ مُدْعًى﴾؟
- 2 - ما الوجهان الواردان في تفسير قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا...﴾؟
- 3 - يُعَدُّ الالتفات من الأساليب البلاغية فما المراد به؟ وما مثاله في الآيات المفسرة؟
- 4 - ما نوع الاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾؟

الاستثمار

اختلف النحويون في رسم (إذن) على ثلاثة مذاهب: أحدها: أنها تكتب بالالف منونا، وهو مذهب الفراء والمازني، واختاره ابن مالك في التسهيل، وبه ورد رسم المصحف. والثاني: أنها تكتب بالنون، وإليه ذهب المبرد والأكثر. قَالَ النَّحَّاسُ: وَسَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ سُلَيْمَانَ يَقُولُ سَمِعْتُ أَبَا الْعَبَّاسِ مُحَمَّدَ بْنَ يَزِيدَ - المبرد - يَقُولُ: إِنَّهَا مِثْلُ لَنْ وَإِنْ، وَلَا يَدْخُلُ التَّنْوِينُ فِي الْحُرُوفِ». والثالث: التفصيل، فإن كانت عاملة كتبت بالنون، وإن كانت ملغاة كتبت بالالف، نسبه بعضهم للفراء. [ملخص من رصف المباني في شرح حروف المعاني للمالقي: 155 (بتصرف)].

1 - ما هي مذاهب النحاة في (إذن)؟

2 - كيف تكتب (إذن) في الرسم العثماني؟

3 - أمثل لـ (إذن) العاملة والملغاة.

الإعداد القبلي

أراجع تفسير الآيتين: 17 - 18 من سورة الكهف وأجيب عن الآتي:

1 - ما القراءات الواردة في لفظ ﴿تَرَوْر﴾ ؟

2 - ما هي قراءة الحسن البصري في لفظة ﴿وَنُقَلِّبُكُمْ﴾؟ وما الحكمة من التقليل؟

3 - أبحث عن مدلولات العبارات الآتية: تَرَوْر - تَفْرِضُكُمْ - بِالْوَصِيَّةِ.